الجســـد الشعري

حورية الخمليشي

الكتابة إدراك للجسد الذي يمتلك قوة روحية تمكن من سبر أغوار الذات. فالكتابة عن الروح هي أيضاً كتابة عن الجسد الذي يختزل كل شيء: طباعنا وهمومنا وأحلامنا. لذلك فالجسد لم يعد من اهتمام العلوم الإنسانية كالفلسفة والسوسيولوجيا والسيميولوجيا والأنثروبولوجيا فحسب، بل أصبحت صورة الجسد حاضرة بقوة في الفن والإعلام والأدب، فهو موضوع فلسفي وأخلاقي وجمالي.

وقد اهتم الأدباء في الثقافة الغربية بمفهوم الجسد كميشيل فوكو وجاك ديريدا ورولان بارت وغيرهم من الأدباء. وفي الثقافة العربية نجد اهتماماً كبيراً بمنظومة الجسد. فهو مرجعية سيميائية عند عبد الكبير الخطيبي في كتابه "النقد المزدوج" عن الجسد والوشم. فقرأ ما سماه بالجسد الإسلامي والجسد الجاهلي في ضوء معطيات علم النفس والإبستمولوجيا الحديثة. ووظّف فريد الزاهي في كتابه "الجسد والصورة والمقدس في الإسلام" أيضاً مصطلح الجسد الإسلامي الذي هو مفهوم جامع لكل النتاجات النصية الثقافية التي بلورتها الثقافة الإسلامية بصدد الجسد. كما اهتمت فاطمة المرنيسي بجسد المرأة وصورتها في التاريخ الإسلامي وبالجسد الأنثوي في المجتمعات التقليدية.

والجسد مرجعية شعرية عند أدونيس ومحمد بنيس ومحمود درويش وقاسم حداد وحسن نجمي وسعدي يوسف وعبد الله راجع ... وكذلك عند الشاعرات كوفاء العمراني ومليكة العاصمي وعائشة البصري وميسون صقر ووداد بنموسى وغيرهم من الشعراء والشاعرات.

وقد اهتم محمد مفتاح بحركات الشاعر في كتابه "مفاهيم موسعة لنظرية شعرية"، فتحدث عما سماه بالحركة الجسدية المعبرة، فما نحتفل به هو هذه الحركة الإنسانية الطبيعية الثقافية التي هي مجال اهتمام عدة علوم وأوثقها علم الأعصاب الذي درس هذه الحركة من حيث آلياتها وتجلياتها. ويضيف محمد مفتاح في سياق حديثه عن دلالات الحركة أنه "يجب النظر إلى حركات الشاعر، وهو ينشد، في سياق معين ذي خصوصيّات وهيآت (...)، وفي فضاء معين (...)، وفي زمان خاص (...)،

وشكل وقامة الشاعر(...)، وطبيعة انتمائه القومي، والوطني، والجهوي (...)، ونوع حَرَكَاتِهِ (حركات الرأس، واليدين، واتجاه الحركة، وحركة الصدر، والأرجل...)(1).

وهناك عدة معطيات تؤثر في حركات الشاعر منها مناسبة القراءة ونوعها بالإضافة إلى الزمن والمكان والفضاء وانتماء الشاعر القومي أو الوطني أو الجهوي. فأشار محمد مفتاح إلى أننا يمكننا أن نقيس الحركة على بعض التأليف الموسيقي، فجعل حركة الرأس، واليدين، ولاسيما الوجه من الحركات الأساسية. وهكذا، يمكن أن نقول بأن كل الحواس تشترك في قراءة القصيدة، فالجسد كيانٌ بما فيه اليد والعين والأذن وغيرها من الحواس. وحركة الرأس واليدين ناتجة عن انفعال الشاعر. فالكتابة عند الشاعر محمد بنيس فعل جسدي. يقول في كتابه "كلام الجسد": "هكذا يظهر الجسد أمامك في المكتُوب، يمتدُّ في مُتعة وشهوانية لا حدودَ لهما."(2). ويضيف: "كنت، منذ نهاية السبعينيات، وضعتُ الجسدَ في مركز القصيدة. لم يكن ذلك اعتباطاً ولا نزوة. كتاباتٌ وأعمالٌ دلتني على معنى الجسَد الواقعي، الحي، في العمل الشعري(...) كان الجسد هو نفسه الذي يدُلني على كلامه، في الكتابة(...) فليس الجسد بالنسبة لي سوى هذه الحواس وهذه الأعضاء التي بها يحس الجسدُ نفْسه وغيرَه في آن"(3). إن الشاعر يرسم جسد القصيدة، وفي خياله تتشكل صورة الكون والتاريخ والثقافة والحضارة الذي يعبر عن جسد الكون وجسد التاريخ وجسد الفن. فمن الجسد تأتي اللغة والصور والخيال والإحساس بكُنه الأشياء. واليد هي أكثر الأعضاء حساسية في الجسد. فكثيرا ما نقرأ عبارة "على يد الشاعر" أو "بيد الشاعر" أو "من يد الشاعر". لأن اليد هي التي تكتب فهي أساس الجسد.

وقدّم معجم Le Robert دلالات متعددة لليد. فهي عضو للمس والمصافحة والتعبير بالإشارة عن الموافقة أو عدم الموافقة أو الفرح أو اليأس أو الاستسلام أو طلب الكلمة... ورمز للعمل والكتابة والأخذ والعطاء... يقول محمد بنيس: "أجدني تلقائياً في حديث معَ اليَد، يَدي. لم أنتظر أحداً ليقدّم لِي يدي، في مُناسبة من مناسبات الحياة الاجتماعية أو الثقافية"(4). هي اليد التي قرّبته من العالم والحقيقة والانفتاح على الأسئلة الكبرى. في اللقاء مع اليد لقاء مع القصيدة أي لقاء مع أجمل الكلام. فالجسد الشعري البنيسي أداته لغة كونية لا توهمنا بالوصول إلى شيء، فهي لانهائية متجاوزة للنظرة الميتافيزيقية والصوفية."وكما أن كلام الجسد لانهائي فإن قراءته لانهائية"(5). لذلك كان "مصير القصيدة، مصير الكلام"(6).

والجسد في شعر محمود درويش بؤرة الصراع بين الحياة والموت، ففي الجدارية نجد أن معاناة ذات الشاعر دفعته إلى تصوير ذات أخرى قادرة على الحوار وعلى مواجهة الموت في اندماج كلي بين الروح والجسد. يقول الشاعر(7):

من أنت، يا أنا؟ في الطريقِ
اثْنانِ نَحْنُ، وفي القيامة وَاحدٌ.
خُذْني إلى ضوء التلاشي كي أرَى
صَيْرُورتي في صُورتي الأُخرى. فَمَنْ
سأكون بعدَكَ، يا أنا؟جَسَدي

ومن أجمل قصائده في تقديس الجسد وإعطائه بُعداً رمزياً متميزاً، قصيدته التي يستحضر فيها الأرض في جسد وهي دليل على الارتباط الشديد بين الشاعر والأرض. فأرض فلسطين من أجساد أبنائها، وهي أرض تسكن جسد الشاعر كما تسكنه الكلمات. إنها بمثابة ماء ينعش الأرض كما ينعش ذات الشاعر. يقول في قصيدة "الأرض":

أنا الأرض..
يا أيّها الذاهبون إلى حبّة القمح في مهدها
احرثوا جسدي ..!
أيّها الذاهبون إلى صخرة القدس مرّوا على جسدي
أيّها العابرون على جسدي
لن تمرّوا
أنا الأرضُ في جسدٍ

إن الكلمات هي غذاء الروح والجسد عند الشاعر. تبعث فيه الحياة وتلهمه القوة على العطاء والإبداع والاستمرارية. يقول في قصيدة " ها هي الكلمات"(8) من ديوان "كزهر اللوز أو أبعد..."

ها هي الكلماتُ ترفرف في جسدي نحلةً
نحلةً... لو كتبتُ على الأزرق الأزرقَ
اخضرَّتِ الأغنياتُ وعادت إليَّ الحياةُ.

وتبرز صورة الجسد الإبداعي ولغة الحواس بفنية عالية عند حسن نجمي في "الرياح البنية" (les vents ocres) الذي هو عمل مشترك مع الفنان التشكيلي الكبير محمد القاسمي، حيث تزاوج الشعر

والتشكيل. فالجسد لغة وصورة ولون. إنه حامل للون التراب والصلصال. الذي هو رمز لمراحل خلق الجسد. يقول في رسالته للفنان محمد القاسمي(9):

"وجلستُ أكتبُ.

وأكتُبُ. وأكتُبُ. وأكتُبُ...

وأمشي حافياً لأتعرَّف على أصابع قَدَميَّ، ولأُحِسَّ فعلاً بأنني مازلتُ أملِكُ جسداً، يمشي في هذا الفضاء العربي الكسيح."

وهذا العمل إضافة نوعية متميزة للإبداع المغربي ولجسد الثقافة العربية. وتتحقق للجسد دلالاته المتعددة الفنية واللغوية عند الشاعر حيث يخرج الجسد الشعري من الحياة العادية إلى عالم أرحب، ومن عدم الوعي بالعالم إلى إدراكه. فيعيش تراتبية الفصول ولغتها بخريفها وشتائها وربيعها وصيفها. لأن صغر الحياة لا يقلص من جوهر حقيقة الشعر. يقول حسن نجمي في ديوان "حياة صغيرة"(10):

وهذه الفصول تتناوب على جسدي

لا تكلم بعضها ولا تكلمني

ويعبر حسن نجمي عن الجسد بلغة الصوفية (لغة المحو). فالجسد مورس عليه المحو ليرقى إلى مقامات الصوفية، يقول:

لماذا دفق الكلام؟

ودفق الصمت...كيف أمحوه من جسدي

كل شيء ينمحي في أو امحى.

لا شيء يبقى بعد امحاء جسدي.

إلا هو: جسدي (11).

إن لغة المحو عند الشاعر موقع قرائي يختلط فيه الصوفي والميتافيزيقي. فالخطاب الشعري الكوني عند الشاعر يطرح منظومة الجسد التي حجبتها الرؤية الصوفية.

ونجد بوحاً جميلا للجسد في وعيه وإحساسه وانشطاراته في ديوان نجيب خداري "يد لا تسمعني"، يقول الشاعر:

يدي

على يد لا تسمعني

على صخرة

تمسدها... عَلّ فراشة تطير

تعصرُها... عَلّ نبيذا يسيلُ

وقد تفصح اليد في قصيدة "بين يديك"(12) عن شيء مثير، غريب، غامض وغير مطاوع لنقل الإحساس والتجربة والمعاينة، يقول الشاعر:

الذي بين يديك
مثـــل
هـــوامّ
الليل
لا يسير إليكْ..
...
الذي إن كففت عنه يـــدا
صِرْتَ
دون يـــدٍ
دون غـــدٍ.

وتظل الإيماءات الحركية لليدين تعبر عن صوت الجسد الشعري للدخول في عوالم الشعر الذي لا حدود لضفافه. فاليد هي التي تصنع حركة الشاعر ووجدانه بل وفكره، وبدونها قد يفقد هويته وقلبه. إن اليد بوابة الشاعر لولوج عالم القصيدة.

وفي ديوان "يبتل بالضوء" نجد أنشودة جديدة للجسد. فالغيم، والبحر، والفلك، والشاطئ، وثلج الشتاء، وصخرة الماء... عناصر تحيلنا على الماء. وإذا كان الماء سائلا لا طعم له، ولا لون، ولا حجم، ولا رائحة، فهو عند الشاعر جسد ووسادة من مطر. إنه جسد من فيض ماء الشعر ومتعة الكتابة. يقول الشاعر في "جسد من ماء"(13):

هل أصعد
إلى قليلِ هواءٍ.
هل أصعد
إلى جسدٍ مِن ماءْ.

والصعود إلى جسد من ماء صعود إلى الحكمة التي هي متنفس الشاعر. فللجسد قوة الماء وقوة المطر لقدرة الماء على تشكيل تضاريس الأرض وازدهار الحضارات أو انهيارها، فقوة الماء إذن تضاهي قوة الأجساد التي تعمر هذه الأرض. وقد بدا هذا القسم من الديوان بمثابة لوحة تشكيلية تعكس صورة

الجسد المتكون من ماء الحياة، الذي نجد في انسيابه انسياب الجسد الذي يبحث عن هذه اللحظة الخالدة من زمنه الشعري في المجهول واللانهائي.

وتقوم الصورة البلاغية في علاقتها الوطيدة بمنظومة الجسد على سبر أغوار الجسد في ديوان "لا أمل لي بهذا الصمت" لإسكندر حبش. إنها صور شعرية رائعة تأتي من جسد اللغة لتُعبّر عن لغة الجسد الكامنة في لغة الظل والضوء، يقول الشاعر في قصيدة "جسد"(14):

كأن جسدا
يمرّ من ثقب الباب
يتنزه بين الجالسين
في الممرّات الطويلة
كأن يجعل أخطاءه هادئة
ولا ينظر إلى دوران الساعة.

فالجسد الشعري عند إسكندر حبش جسد سحري أسطوري مدهش له قدرة على اقتحام كل الصعاب وكل الأماكن، يمرّ من ثُقب الباب، ويتنزّه بين الجالسين في الممرّات الطويلة، لا يعبأ بدوران الساعة، ولا زمن له إلا زمن الشعر وفضاء القصيدة. يقول في قصيدة "دمع"(15):

دمعٌ،
ليس هو الشتاء
لن أقول عاصفة
فاستلم للسرير والمدخنة،
لا أحد هنا
لا أحد
في هذا الضوء الشاحب.

إن الجسد الشعري عند إسكندر حبش لا تكتمل شعريته إلا في النسيان أو ما يمكن أن نسميه بشعرية النسيان عند العرب. ففي الحفظ والنسيان تكتمل ثقافة الشاعر. وشعرية القدماء مرتبطة بالنسيان كقيمة شعرية للإبداع الشعري وهي المرتبطة بثقافة الشاعر التي دعا إليها الجاحظ. نسيان يجد ملاذه عند الشاعر في شعرية الظل والضوء الذي هو تحقيق للذات وبحث عن الحقيقة المطلقة، وبحث عن الإنسانية في أسمى معانيها. يقول في قصيدة "أخرج من ظلك"(16):

صباح الخير
المدينة لن تصل إلى البحر

هذا اليوم،
ها أنا أخرج من ظلك.
لم يبق لديّ
سوى
جسدك.

ونجد قراءة مغايرة لمنظومة الجسد في ديوان "أحتمل الوجود" للشاعر محمد أنوار محمد. فالوجه والجبين والعيون والأنف تُسائل الوجود أسئلة محيِّرة تسري وتغلي في دم الشاعر. أسئلة صعبة بزَيٍّ عسكري تجعل جسد الشاعر يخوض غمار المساءلة لاستبصار الحقيقة، حروب أفكار تُحاك على الجبين لتبحث عن حروف تدخل بها غمار سِرّ العالم وسر الوجود. ما جعل النص الشعري يثير العديد من الرؤى والأسئلة الفلسفية الصعبة. يقول محمد أنوار محمد في قصيدة "أحتملُ الوُجودَ"(17):

تَسْتاءُ منْ وَجْهي السَّماءُ
كَأنَّ رَايةَ شَاعرٍ
رُفِعَتْ على أنْفي
كَأنَّ حُروبَ أفْكارٍ
تُحاكُ عَلى الجَبينِ
كَأنَّ شَيْطاناً رَفيعَ المُستَوى
وَسْطَ العُيونِ
كَأنَّ أسْئلَةً بزَيٍّ عَسْكريٍّ
في دَمي تَغْلي..

تتحول الذات إلى بساط ريح تجوب به ملكوت الوجود لتصنع كوناً شعرياً من الكلمات تعبُر به كل هواء وتسلك كلَّ خواءٍ وتُدرك كل ما خفي في مملكة الكون الشعري. ذات تسعى إلى العلُوّ والسّمُوّ، فلا تطيق التراب فراشاً، ولا ماء السفوح شراباً، ولا مغتسل الأولياء شفاءً. وبهذا تكون الأنا الشعرية قد شكّلت أرضية مهمّة لحضور الجسد، وكرّست وجوداً فلسفياً معرفياً لرؤية العالم واحتمال الوجود. يقول الشاعر في قصيدة "هكذا أنا..."(18):

جُبِلْتُ على الطَّيرانِ
فكيْف أطِيقُ التُّراب فِرَاشاً
وماءَ السُّفوحِ شرَاباً
ومُغْتسل الأولياء شفاءً

وكُلِّي بُخارٌ
يَجوبُ السَّماءَ
وكُلِّي عروقٌ
من الكَلماتِ
تسيلُ بأمْري
وتَعبرُ كلَّ هواءٍ
وتسلُكُ كلَّ خواءٍ
وتُدركُ كلَّ خفيٍّ
فَأبْدُو جَليّاً..

هكذا يسعى الجسد الشعري إلى تلبية نداء المحبة والإنسانية دون حصار لليد والعين والأذن واللسان والعقل... فلا وجود لكتابة بدون الاستعانة بأعضاء الجسد. فالجسد مصدر التفكير وهو الذي يُملي الصور والإحساس وأعذب اللغة والكلام. ولهذا الكلام، مثل الجسد، معالمه الخاصة والمميِّزة. والقصيدة أجمل الكلام وهي كلام الجسد.

1-محمد مفتاح، مفاهيم موسعة لنظرية شعرية: اللغة- الموسيقى- الحركة، الجزء الثالث: أنغام ورموز، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء/ بيروت، ط1، 2010، ص. 325.

2-محمد بنيس، كلام الجسد، دار توبقال للنشر، الطبعة الأولى، 2010، ص. 6 . 3-نفسه ص. 5-6.

4-نفسه، ص. 9. 5- المرجع نفسه والصفحة ذاتها.

6-عنوان محاضرة ألقاها محمد بنيس بجامعة السوربون بمناسبة افتتاح ربيع الشعر بفرنسا.

7-محود درويش، الأعمال الجديدة الكاملة، ط 1، المجلد 1، رياض الريس للكتب والنشر، بيروت، لبنان، 2009، ص 476-477.

8-محمود درويش، المرجع نفسه، ص.197.

9- حسن نجمي ومحمد القاسمي، الرياح البنية، منشورات مرسم، 2005، ص. 10.

10- حسن نجمي، ديوان "حياة صغيرة"، دار توبقال للنشر، ط 1، 1995 ، ص. 1

11-حياة صغيرة، ص. 5

12-نجيب خداري، بين يديك، ديوان يدٌ لا تسمعني، دار الثقافة، الطبعة الأولى، 2005، ص. 41-42.

13-نجيب خداري، جسد من ماء، ديوان يبتل بالضوء، دار النهضة العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 2009، ص. 48.

14-إسكندر حبش، أخرج من ظلك، ديوان لا أمل لي بهذا الصمت، منشورات الجمل، بيروت، 2009، ص. 9

15-نفسه، ص. 42. 16-نفسه ، ص. 52.

17-محمد أنوار محمد، أحتمل الوجود، ديوان أحتمل الوجود، مكتبة دار الأمان، 2008، ص. 3.

18-محمد أنوار محمد، هكذا أنا، ديوان أحتمل الوجود، مكتبة دار الأمان، 2008، ص. 7.